3

غراهـام آليسـون
Graham Allison

أثـر العولمة في الأمن القومي والعالمي

واضح أن العولمة كلمة طنّانة، وربما كانت الكلمة الطنّانة الأهمّ في هذا العصر. مفيدٌ في البداية، أن نذكّر أنفسنا بأن العولمة بالأساس تركيب فكري وليست حقيقة بسيطة. وكما تستعمل في الوقت الحاضر، غالباً ما تُعرّف تعريفاً سيّئاً بأنّها مؤشّر إلىٰ عدد متباين من الظواهر، غالباً ما يصاحبها ضيق تنفّس يتضمن أن وراء هذه الظواهر، أو في جذورها، توجد مادة لتكتشف بعد. (تذكر تعريف لوك Locke للمادة: «شيء لا أعرف ما هو»). وكما يستعملها المروّجون اليوم، يذكرني ذلك ببرنامج إذاعي يدعىٰ «الظل»، الذي يعلن في بدايته «الظل له القوة لجعل عقول الناس غائمة». إن التمييز بين العولمة Globalization من جهة، و«العولمة الكاذبة» Globaloney من جهة أُخرىٰ، هو تحد كبير.

للمساعدة في تلك المهمة، اسمحوا لي أن أقترح تعريفاً يقوم علىٰ أساس ما يسميه أحد زملائي «مجاز الشبكة». وبموجب هذا المجاز، يجب أن نفكّر

(*) يرغب المؤلف في أن يشكر بن دنلاب Ben Dunlap علىٰ مساعدته في إعداد هذا الفصل.

في العولمة بأنَّها عبارة عن شبكات قابلة للتعريف. من ناحية الاشتقاق اللغوي، فالشبكات عبارة عن توسيع فكري لموضوع بسيط يدعىٰ الشبكة، مثلاً شبكة صيد السمك فيها خيوط متصلة تتقاطع بأبعاد منتظمة. الروابط بين عقد في أنظمة بث الراديو أَو التلفزيون، أَو المكونات الإلكترونية المتصلة، تصبح شبكة. فباستخدام هذا المجاز تكون العولمة قد عُرِّفت كإبداع أَو توسيع شبكة قابلة للتعريف حول الكرة الأرضية. الشبكة العالميَّة تصل النقاط والناس حول العالم علىٰ بعد محدد أَو في وسط معين.

تصبح أهمية هذا التعريف أكثر وضوحاً عند مقارنة العولمة مع الإقليميَّة أَو القوميَّة أَو المجموعة الشمسيَّة أَو الكونيَّة. فالقوميَّة تفهم بأنَّها مؤسّسة من الشبكات بين النقاط والناس علىٰ أبعاد محددة عبر الأمَّة. والمجموعة الشمسيَّة كإبداع شبكات علىٰ أبعاد محدّدة بين نقاط عبر المجموعة الشمسيَّة.

وفي موضوع الشبكات، فكر بشبكة الهاتف أَو بشبكة الكهرباء أَو حتى شبكة الإنترنت. فتعرّف الشبكة بأنَّها صلات معينة بين نقاط أَو أناس هم أجزاء الشبكة، وللشبكة «هندسة معمارية» تعرّف الطبيعة المحددة للعلاقة بين وحدات في النِّظام. هناك ثلاثة أنواع من هندسة الشبكات النموذجيَّة هي: «المركز والأشعة» أَو «النجم»، والشبك ويتألف من أشعة متصلة، وشبكة «سيارة الباص» وتتألَّف من رابطة بث مفردة تتّصل بها كافة العقد. (الأشكال 3 ـ 1، و3 ـ 2، و3 ـ 3). تمثِّل شبكةَ «المركز والأشعة» حركةُ طيران تبدأ من مطار واحد؛ وشبكة الكهرباء مثال علىٰ هندسة الشبك؛ وشبكة «سيارة الباص» هي «شبكة» الإنترنت المستعمَلة عموماً. وأمثلة أُخرىٰ من شبكة الإنترنت تشمل «الحلقة» و«حلقة النجم السلكي»، وهي جمع شكل النجم مع شكل الحلقة (الأشكال 3 ـ 4 و3 ـ 5).

إن المناقشات السابقة حول نمو الاتصالات العالميَّة نتج عنها مفهوم «الاعتماد المتبادل» وهو يعني بصورة أساسيَّة أن آثاراً تبادلية تنتج من الروابط

بين الدّول المختلفة. ومع مرور الوقت اتضح أن الاعتماد المتبادل أمسك بجزء من القصة فقط. فالدّول والعاملون في دول مختلفة يتَّصلون بأبعاد معينة، وبسبب هذه الاتصالات يكون لهم آثار تبادليَّة في بعضهم بعضاً. ولكن نادراً ما تكون آثار هذه التفاعلات متساوية. فالقوة النسبية والشدة أَو التأثير، كلّها عوامل تحديد في العلاقات بين الدّول أَو العاملين في دول مختلفة.

إذا استخدمنا مفهوم الشبكة العالميَّة، فإنَّنا نستطيع تحديد سؤالين رئيسيين حول العولمة. الأول، ما هي الصِّلة المحددة الموجودة بين أية نقاط محددة في النِّظام؟ لا توجد عولمة إذا لم توجد صِلات محددة بين نقاط محددة حول العالم وبأبعاد محددة. نقاط في العالم فقط متصلة بالنِّظام العالمي، مثلاً الإنترنت، هي التي تشترك في هذا النِّظام العالمي المحدد. السؤال الثاني، نستطيع أن نسأل عن أثر أية نقطة من النِّظام في الوحدات الأُخرىٰ. ففي شبكة المصدر والأشعة، إن المصدر المركزي للطاقة، كمحطة الطاقة المركزية، توزع الكهرباء من خلال عقد إقليميَّة إلىٰ المستهلكين المحليين، والأثر هنا يتدفق باتجاه واحد فقط. والبديل في شبكة الطاقة الكهربائية توزع عدة مولدات الطاقة بين عقد في الشبكة. والشخصية الديمقراطية الرائعة لشبكة الإنترنت، غالباً ما تلاحظ لأسباب تشريعيَّة كثيرة. فعلىٰ سبيل المثال، يستطيع كل مشترك في النِّظام توليد رسائل للآخرين، ويستطيع كل شخص «يعرف كيف» أن يوجد موقعاً في الشبكة. إن الشبكة العالميَّة ككل غير منظمة نسبياً. وتظهر محركات البحث النتائج بطريقة ديمقراطية. ومع ذلك، إن الفروق في التأثير النسبي بين المستعملين ومقدمي الخدمة، أَو المستعملين ومقدمي المحتوىٰ، أَو محرِّكي البحث، هذه الفروق كبيرة جداً بقدر الفروق بالطاقة الملاحظة بين معظم الأنظمة القوميَّة.

الشكل 3 ـ 1

النجم

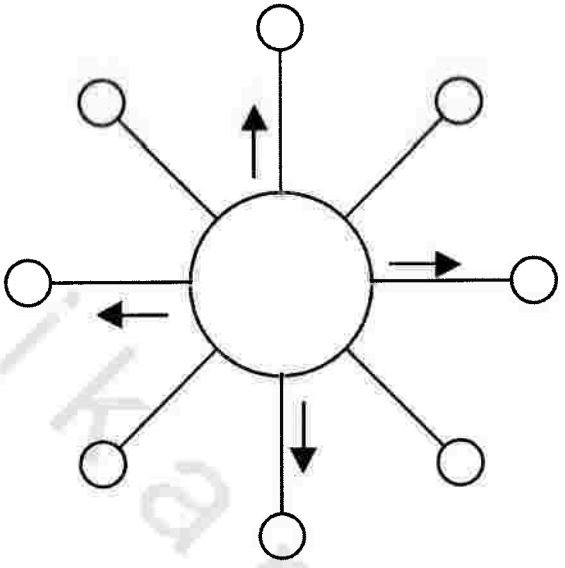

الشكل 3 ـ 2

الشبك

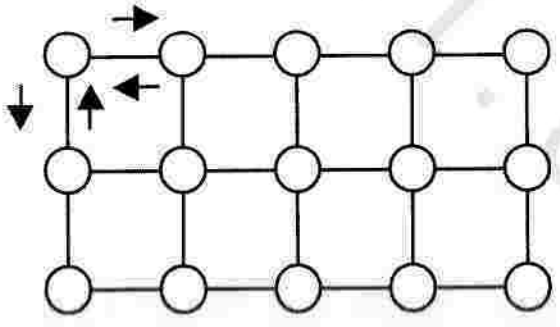

obeikandl.com

الشكل 3 ـ 3

الباص

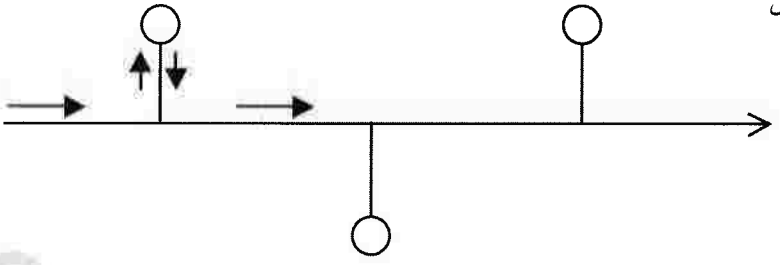

الشكل 3 ـ 4

الحلقة

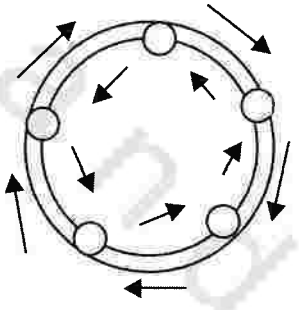

الشكل 3 ـ 5

النجم والحلقة

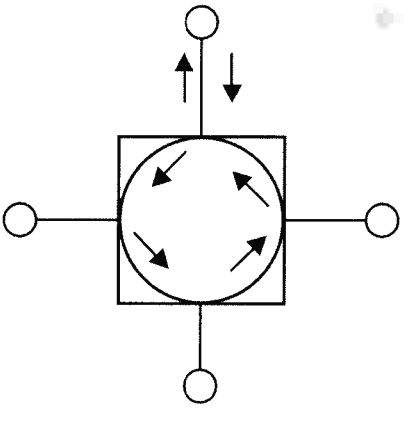

obeikandl.com

إن تعريف العولمة بأنَّها شبكات عالميَّة معينة يمكن أن يسمح لنا بتجنّب الكثير مما يبدو «عولمة كاذبة» حول عامل المساواة العظيم. فالنقاط حول العالم التي تصبح متصلة بشبكة عالميَّة على أبعاد ما يمكن أن تستفيد كما يستفيد المزارع الريفي عندما تصل الكهرباء إلى مزرعته. ولكن لا يتصور أحد أن تأثير المزارع في مولد الكهرباء مساوٍ لتأثير المولد فيه. فكِّر، بطريقة مماثلة، بصاحب معمل الأدوية في السودان الذي أَصبح متصلاً بنظام توضع عالمي إضافة إلى نظام تسليم طويل المدى لذخائر توجه بدقَّة. هذه الرابطة جعلت من الممكن لرئيس الولايات المتحدة وبقرار وحيد الجانب أن يدمِّر ذلك المصنع ببضع ساعات، مبيناً لصاحب المعمل عدم المساواة في صلة غير مرغوب فيها.

ما هو المقصود بقضايا الأمن التقليديَّة والقوميَّة والعالميَّة؟

في كتب العلاقات الدّولية النموذجية، الدّول هم اللاعبون الرئيسيُّون في العلاقات الدّولية، والقضايا المركزية للدول هي البقاء، ووحدة الأراضي القوميَّة ومؤسّساتها، وحرية العمل للحفاظ على هذه المصالح الجوهرية وازدهار الدّولة ومواطنيها. وهكذا، على سبيل المثال بدأت هيئة المصالح القوميَّة الأمريكية التي خدمت بها، بدأت بعبارة الأمن القومي التقليدي من استراتيجية الولايات المتحدة بعد الحرب العالميَّة الثانية وهي: «لنحافظ على الولايات المتحدة كأمَّة حرَّة بمؤسساتنا وقِيَمنا الأساسيَّة سليمة»[1]. والنص الحديث يقول «لنحمي ونطوِّر رفاه الأمريكيين في أمَّة حرَّة آمنة»، وبهذا يعترف بالرخاء إضافة إلى البقاء والأمن كأهداف جوهرية.

مرة ثانية، لاحظ الفروق الكبيرة بين القوى العظمى والصغرى، وكذلك بين الاستراتيجيَّات المتوافرة للتعامل مع التحديات لهذه الأهداف الجوهرية. ولاحظ أيضاً أنَّه يمكن أن يوجد صراع بين هذه الأهداف، فمثلاً، كما هو ظاهر في العمل الأوروبي الراهن في حجب التحكم المسيطر على العملات لصالح البنك المركزي الأوروبي بأمل تشجيع الرخاء. وبطريقة مماثلة، يلجأ الضعفاء

إلىٰ التضحية باستقلالهم في العمل بالتحالف مع القوىٰ الأعظم حفاظاً علىٰ بقائهم وسيادة أراضيهم.

وهكذا تشتمل قضايا الأَمن التقليديَّة علىٰ الحرب والسلام، سيما في ما بين القوىٰ العظمىٰ؛ وتوازن القوىٰ والأحلاف؛ والإمبرياليَّة؛ والعلاقات الاقتصاديَّة الدّولية بما فيها الوصول إلىٰ المواد الخطرة، والتجارة، والاستثمار، والعملات؛ والقانون الدّولي؛ والمؤسَّسات العالميَّة. وما يسمى بالأجندة الجديدة التي تشتمل علىٰ بعض القضايا التي برزت مع التطور التقني (مثلاً، النتائج البيئيَّة لطرق الإنتاج أَو إسهامات تكنولوجية حيوية لتقديم أسلحة الدمار الشامل) وبعض الأمور التي كان اهتمام الدّول بها أقل في السابق، خاصة الأحداث داخل الدّول الأُخرىٰ كالحروب الأهلية وحقوق الإنسان.

قدمت الصحيفة الرائدة في هذا المجال، الأَمن العالمي International Security، في عددها الأول الصادر سنة 1976، تعريفاً للأَمن العالمي والذي أثبت أنَّه دليل دائم:

> «يتزايد تعريف الأمم لأمنها ليس بالأشكال التقليديَّة لقوَّاتها العسكريَّة، واقتصادها النشيط، واستقرار الحكم فيها فقط، بل بشروط أُخرىٰ كقدراتها التي كانت في الماضي أقل مركزية: كموارد الطاقة، والعلم والتكنولوجيا، والغذاء، والمصادر الطبيعيَّة. . . . اليوم لقد فرض الاعتماد المتبادل اهتمامات عبر الأمم ـ كالتجارة والإرهاب والتوريدات العسكريَّة والبيئة ـ لتكون عناصر رئيسيَّة في الاعتبارات الأمنية في أي مجتمع رفاه ورخاء. . . يشتمل الأَمن العالمي علىٰ جميع تلك العوامل ذات التأثير المباشر في بنية نظام دولة الأمَّة وسيادة أعضائها. مع تأكيد خاص علىٰ استخدام القوة والتهديد بها وضبطها[2]؟»

بالاختصار، يشتمل التغير المشروط في سؤال هذه المقالة علىٰ بقاء

الدّول وسيادتها وقوتها ورخائها، وعلىٰ الأدوات الرئيسيَّة التي تحمي بها هذه المصالح وتطورها.

ما هي الفرضيات الرئيسيَّة حول تأثير العولمة في قضايا الأَمن التقليديَّة والقوميَّة والعالميَّة؟

لنبدأ بدراسة الفرضيَّات الرئيسيَّة التي قدَّمتها أوسع المراجعات حول هذا الموضوع في كتاب لديفيد هيلد وآخرون David Held[3]. فهم يعرضون ست فرضيَّات رئيسيَّة حول العولمة وقضايا الأَمن.

- «إن انتشار التقنيات العسكريَّة في جميع أنحاء العالم تعني أنَّه بينما يطوِّر المجددون ويستخدمون حدوداً فاصلة في الأسلحة المتطورة، فإن دولاً أُخرىٰ تضطر للحصول علىٰ أحدث المعلومات والأنظمة أَو أن تدفع ثمن تخلفها في قوتها العسكريَّة وفي أَمنها»[4].

بينما هذه الحقيقة المؤكّدة صحيحة فإنَّها ليست جديدة ولا عالميَّة.

- «لم يعد يحتاج خوض حرب في عصر المعلومات إلىٰ تحريك المجتمع فيزيائياً، بل يحتاج إلىٰ سياسة علاقات عامَّة فعَّالة تستخدم فيها وسائل الإعلام بمهارة لإعلام الرأي العام. تحتاج معظم الحروب الآن إلىٰ الهدوء السياسي لأَنَّها الآن رأسمال شديد وإمكانات محددة أكثر»[5].

مرة أُخرىٰ، التأكيد صحيح، لكنه يصف تطوراً ضمن بعض الدّول، ليس حقيقة عالميَّة. وفضلاً عن ذلك، إن التطور المذكور ليس نتيجة للعولمة.

- «العالم يمارس ثورة جديدة في التكنولوجيا العسكريَّة MTR، فتقنيات المعلومات تحول القدرات العسكريَّة الموجودة، وإدارة الحروب، والقدرة علىٰ إظهار القوة العسكريَّة من مسافات بعيدة بدقَّة عظيمة»[6].

إن ثورة التكنولوجيا العسكريَّة تطور مهم في القدرات العسكريَّة التي نُوقشت كثيراً، والَّتي وسَّعت من وصول وتمييز القوات العسكريَّة لدىٰ

بعض الدّول. تستطيع الدّول بواسطة الصواريخ البالستية عابرة القارات ICBM والأسلحة النووية مهاجمة كل النقاط الأُخرىٰ حول الكرة الأرضية. دولة واحدة، هي الولايات المتحدة، تستطيع استخدام القوة المميزة عالمياً.

- «تجعل أنظمة الاتصالات الآنية إدارة الحروب أسهل، لأن القادة يستطيعون الإشراف والتدخّل بالعمليات العسكريَّة الميدانيَّة إلىٰ درجة لم تكن ممكنة من قبل»[7].

هذا صحيح بالنسبة للدولة التي فيها الأمر والتحكم والاتصالات، وليس هناك سوىٰ دولة واحدة.

- «العولمة المتزايدة في قطاعات الصناعات المدنية التي تعمل في الإنتاج الدفاعي كالإلكترونيات أَو البصريات، تتساهل في السيادة التقليديَّة للقدرات الدفاعية القوميَّة، لأنَّها تجعل الحصول علىٰ الأسلحة واستخدامها خاضعاً لقرارات وأعمال سلطات أُخرىٰ أَو شركات وراء مجال التشريع القومي»[8].

إن الظاهرة التي تشير إليها هذه الفرضيَّة تحدث ويمكن أن يكون لها آثار كبيرة لدول هي بالأساس مستهلكة لمنتجات أَو مكونات من ثورة المعلومات والجينات. ولكن بالنسبة للولايات المتحدة إن التطور الأهم هو اتساع الفجوة بين التطور المدني لرقائق التنمية التكنولوجية التي يتطلبها السوق والكومبيوتر والجينزات إلخ. من جهة، وتطوير واستعمال هذه التقنيات التي تملكها الدّولة أَو تسيطر عليها، من جهة أُخرىٰ.

- «تصبح تهديدات أَمن الدّول، أكثر انتشاراً ولم تعد عسكريَّة بشخصيتها. فهكذا يوجد تكاثر أسلحة الدمار الشامل تهديداً قوياً لكل الدّول»[9].

مرة ثانية تعرض هذه الحالة حقيقة هامَّة عن أسلحة الدمار الشامل لكن علاقتها بالعولمة غير واضحة.

ثانياً، انظر الفرضيات الكبيرة التي عرضها توماس فريدمان Thomas Friedman في كتابه الأكثر مبيعاً The Lexus and the Olive Tree، في فصله حول الأَمن والجيوبولتيكا «السياسة الجغرافية»[10]. يقدِّم فريدمان أربعة اقتراحات حول تأثير العولمة في الأَمن.

- يؤدي التطور الاقتصادي والرخاء إلىٰ السلام بين الأمم. «عندما تصل دولة ما إلىٰ مستوىٰ من التطور الاقتصادي حيث تصبح الطبقة الوسطى كبيرة لدرجة تكفي لدعم سلسلة محال ماكدونالدز McDonald's تصبح دولةَ ماكدونالدز. ولم يعد الناس في دول ماكدونالدز يحبون خوض الحروب؛ إنَّهم يفضِّلون الاصطفاف والانتظار للحصول علىٰ البرغر[11].

إن هذا المتغير المثير من نظرية السلام الديمقراطي، وبموجب هذه المقولة فإن الديمقراطيات لا تحارب ديمقراطيات أُخرىٰ، وقد وُضع تحت الاختبار في غارات حلف شمال الأطلسي NATO علىٰ صربيا في سنة 1999. فأقواس ماكدونالدز لم تنقذ وسط مدينة بلغراد. تساعد العولمة الاقتصاديَّة علىٰ انتشار الرخاء الاقتصادي والتغير التكنولوجي، لكن تأثير هذا التطوير أقل وضوحاً. ويعترف فريدمان بهذا في كتابه في ما بعد، وهو يلاحظ أنَّه بينما تزيد «العولمة من تكاليف خوض الحرب لأسباب تتعلَّق بالشرف أَو الخوف أَو المصلحة، فإنَّها لا تلغي ولا تستطيع أن تلغي أيَّاً من هذه الغرائز»[12].

- يقدِّم المستثمرون العالميون الخاصون، وليس الحكومات، أهم المصادر المالية اليوم يدفعهم هدف الربح وليس الأفكار: إن الشركات الإلكترونية العملاقة لا تكتب شيكات بيضاء لتكسب حب وولاء دولة ما؛ إنهم يكتبون الشيكات لتحقيق الأرباح. والمجمعات الاستهلاكية (السوبر ماركت) والشركات الإلكترونية لا تهتم حقاً بلون بلدك الخارجي أبداً. فكل ما يهمها هو كيف تترابط بلدك من الداخل، وما هو مستوىٰ الأنظمة والبرمجيات التي تستطيع تشغيلها، وإن كانت حكومتك تستطيع حماية

الملكية الخاصة. لذلك، لن تمول تلك المجموعات حرباً إقليمية لدولة ما قط ولن تعيد بناء القوات المسلَّحة لدولة ما بعد حربها مجاناً ـ كما تفعل القوىٰ العظمى لتكسب الولاء فقط ـ بل إن هذه المجموعات سوف تعاقب بالفعل الدّولة لخوضها حرباً مع جيرانها، وذلك بسحب مصدر النمو الهام والوحيد في العالم اليوم، رأس المال»[13].

يشير فريدمان إلىٰ حقيقة هامَّة هنا. لقد تجاوزت شبكات التجارة العالميَّة سيادة الدّولة. فالمستثمرون العالميُّون الخاصُّون يبحثون عن قواعد للعبة يمكن التنبؤ بها ويمكن فرضها. ولأنَّها مصادر قوية ومستقلَّة للتأثير في الأمم وفي العلاقات بين الأمم، فإنَّها تساعد في صياغة الشروط التي بموجبها تشترك الدّول في شبكات عالميَّة معينة. لذلك فإن تأثير GAAP (ممارسات المحاسبة المقبولة عموماً، وليس مخازن بيع الملبوسات) في المشاركين الطموحين في الأَسواق العالميَّة تأثير مكشوف.

- بسبب عولمة شبكات الأَموال، فإن الدّول أكثر عرضة للتأثُّر بالأزمة الاقتصاديَّة المنتشرة من إقليم إلىٰ آخر. بينما تصبح الأزمات العسكريَّة الإقليمية محدودة، تصبح الأزمات الاقتصاديَّة الإقليمية عالميَّة، كالمكسيك في منتصف التسعينيَّات، وجنوب شرق آسيا في أواخر التسعينيَّات، وروسيا في نهاية التسعينيَّات. فنظرية الدومينو التي كانت تخص عالم السياسة، إنَّها اليوم تخص عالم المال»[14].

لقد كانت نظرية الدومينو دائماً مجازيَّة أكثر منها تحليليَّة. فهي علىٰ العموم تغطي طبقات غير مختلفة لاتصالات مباشرة وغير مباشرة، نفسية أَو تخيلية وتستطيع أن تكون محلية أَو إقليميَّة أَو حتى عالميَّة في بعض الأحيان. إن الأَسواق العالميَّة لرؤوس الأَموال متكاملة، لذلك فإن الأحداث في دولة ما يمكن أن تؤثِّر في دول أُخرىٰ تأثيراً مباشراً من خلال تحويلات مالية آنية وتأثيراً نفسياً. مثل هذه التأثيرات، التي تُثير انقطاعات كبيرة في اقتصاد

ما، يمكن أن تقلِّل من أهمية القدرات العسكريَّة أَو تفاقم الاتجاهات الانفصالية، أَو تخلق قابلية للتأثّر بالخصومات الخارجية. تتضح هذه النتائج وغيرها في الأزمة المالية الآسيوية في سنوات 1997 ـ 1998، والمثال هو أندونيسيا (التي فقدت تيمور الشرقية).

- الاتصالات العالميَّة تسبِّب نشوء تهديدات أمنية جديدة لكنَّها أقل تحديداً. «عليك أن تقلق بشأن التهديدات المقبلة من دول أمة انفصلتَ أنت عنها، العراق، إيران، كوريا الشمالية. أما الآن، فيجب عليك أن تقلق وبصورة متزايدة بشأن التهديدات المقبلة من أولئك الذين أنت متصل بهم، بما في ذلك الاتصال عبر الإنترنت، والأَسواق، ومن أولئك الأقوياء الذين يستطيعون المجيء إلىٰ باب دارك[15].

إن شبكات الاتصالات المعولمة والأَسواق المالية والنقل تزيد من ضعف الدّولة أمام التهديدات من فشل الأَنظمة ومن عوامل لا علاقة لها بالدّولة.

بعد التفكير بالأسئلة الموضوعة والحجج التي قدّمها فريدمان Friedman وهيلد Held وآخرون أعرض هنا للتفكير ثماني فرضيَّات حول آثار العولمة في المصالح الأَمنية التقليديَّة القوميَّة والعالميَّة.

- إن التطورات التكنولوجية المستخدمة في تحديد الأهداف (أنظمة التوضع العالمي) وتوجيه متفجرات إلىٰ أهداف (القذائف والقنابل الليزريَّة) وفعل ذلك خلال ساعات يسمح لبعض الدّول (خاصَّة الولايات المتحدة) لأن تصل إلىٰ أهداف وتدمرها عملياً في أي نقطة في العالم. لقد وجدت هذه الظاهرة منذ تطوير ICBMs (الصواريخ البالستية العابرة للقارات) مع الرؤوس النووية. وهذه قدرة طوَّرتها الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين. تسمح التطورات الأخيرة للولايات المتحدة بتحقيق هذه النتيجة بمتفجرات تقليديَّة غير النووية بتوجيهها بدقة عالية بواسطة القنابل الذكية وصواريخ كروز. من بين النتائج: الدّول الأضعف عرضة

للتهديدات الشديدة واستخدام القوة من قِبل قوى بعيدة بطُرق لم تكن ممكنة في الماضي. وظهر ذلك جلياً في غارات حلف الناتو بقيادة الولايات المتحدة علىٰ صربيا في سنة 1999.

- إن التقدّم في تكنولوجيات أسلحة الدمار الشامل، وخاصة التقنية الحيوية، الذي يحسِّن القدرات التدميريَّة للعوامل الحيوية، بالإضافة إلىٰ زيادة الوصول إلىٰ الأَسلحة النووية والمواد النووية التي يمكن استعمالها في الأَسلحة من دول الاتحاد السوفياتي السابق، وشبكات النقل العالميَّة التي تجعل من الممكن للدول الحمراء أَو الإرهابيين عبر الأمم أن يسبِّبوا دماراً في دول قوية، لم يكن في الماضي من الممكن تخيلها.

من بين النتائج: إن يقم (أَو عندما يقوم) سلوبودان ميلوسيڤتش أَو أسامة بن لادن أَو أمثالهما بوضع أجهزة نووية أَو حيوية في مدن أمريكية، فهل ستقوم الولايات المتحدة بحملة قصف مماثلة؟ إن التسرب الممكن لتقنيات الأَسلحة النووية والحيوية والكيماوية مع انتقال الأفراد المتزايد، وكذلك الشحن يخلق نقاط ضعف جديدة حتى في الدّول القوية فتحرضها علىٰ اتخاذ إجراءات وقائية مكلفة ضد الإرهاب الجماعي علىٰ ترابها الخاص.

- إن تآكل سيادة الدّولة والحمايات التقليديَّة من «التدخل في الشؤون الداخلية» له أسباب متعددة لكنه يتجمع بالعولمة، سيما عولمة المعلومات حول الأحداث في دولة ما والتي تهم مواطنين من الدّول الأُخرىٰ. إن ظاهرة السي إن إن CNN تسمح للناس المتصلين بشبكة التلفزيون العالميَّة بأن يروا الحوادث التي تجري في أي مكان تقريباً في العالم، وبذلك يحكمون إن هددت مصالحهم أَو أصيبت مصالحهم بأذىٰ. (قد يسأل الأب بيركلي الحديث Bishop Berkley إن سقطت شجرة في غابة حيث لا توجد آلة تصوير لشبكة سي إن إن لتصورها، هل تصدر صوتاً؟) في محاولة لتبرير ما يعرف الآن بالتدخل الإنساني، يقدم القادة من أمثال بيل

كلنتون Bill Clinton وطوني بلير Tony Blair ادعاءات كونية وهم مهملون لقوانين الأُمم المتَّحدة التي تحتاج إلىٰ موافقة مجلس الأمن من أجل التدخل. أثارت القضية نقاشاً بين القادة المفكرين في الأُمم المتَّحدة من أمثال الأمين العام كوفي أنان Kofi Annan، فنتج عنها إجماع قليل علىٰ ما يجب أن تكون عليه «قواعد اللعبة» الجديدة[16]. إن من ينظرون إلىٰ الحياة العالميَّة من خلال عدسات «الواقعية» يتوقعون أن تعد راوندا وكوسوفو بكل بساطة حوادث في التاريخ الطويل للاإنسانية الإنسان تجاه أخيه الإنسان. وبالمقابل، أولئك الذين ينظرون إلىٰ العالم من خلال عدسات مثالية أَو متفائلة يأملون الآن أن هذه الحالات الاختبارية سوف تكون خطوات هامَّة إلىٰ الأمام. في بناء «نظام عالمي جديد جديد» (متردد لكنه تراكمي). في هذا السيناريو تعطي بعض مستويات القسوة ضمن دولة ما تبريراً كافياً لتدخل عسكري شرعي لوقف مثل هذا السلوك. في أي من الحالين، يبقى السؤال تحت أية شروط وما هي المعايير التي تقاس بها وبأية طريقة تستطيع الأمم أن تقرر التدخل في الشؤون الداخلية لدول أُخرىٰ بصورة قانونيَّة؟

من بين النتائج: وعي متزايد بالأحداث البعيدة التي كانت تمر في الماضي دون أن تثير أيَّة مشاعر سيما في الدّول الغنية للقيام بعمل ما. وبحسب ذلك، إن ضغط الرأي العام في دولة ما لا يؤثِّر علىٰ الحكومة فحسب لكنَّه يؤثِّر أيضاً في حكومة أَو مواطني دولة أُخرىٰ. فردود فعل العامة الأمريكيين علىٰ مأزق ألبان كوسوفو في شهر آذار 1999 كان لها نتائج علىٰ مواطني وحكومة يوغوسلافيا. وفي الوقت الذي كانت فيه الأعمال من وجهة نظر الأمريكيين أعمالاً غيرية وإنسانية، كانت تبدو للكثيرين في دول أُخرىٰ أعمال نفاق وعدوان واستعمار جديد بل وحتى إمبريالية جديدة.

- تسمح ظاهرة محطة السي إن إن CNN للناس بمشاهدة الحرب في غرف

معيشتهم وبالحكم على الأداء العسكري على الأرض أو في الجو أو يقدرون تدفق اللاجئين أو إصابات المدنيين.

من بين النتائج: يعطي من يديرون الحروب أهمية متزايدة لمسارح العمليات ويتدبَّرون الملاحظات (كما يجري في السياسة القوميَّة). فمثلاً، في حزيران 1999 أخر حلف شمال الأطلسي دخوله منتصراً إلى مطار بريشتينا في كوسوفو إلى النهار حتى يكون الضوء مناسباً للتغطية التلفزيونيَّة وللمحررين من حلف شمال الأطلسي، وتحت غطاء الليل قامت قوات روسية بردهم إلى المطار. لعل أحدث الأمور، بعد مراقبة الروس بدهشة لنجاح حلف شمال الأطلسي في تكوين رأي عام حول الحرب في كوسوفو، قامت الحكومة الروسية وقواتها العسكريَّة بجهد قوي وواسع وناجح بإدارة مفاهيم الروس حول حربها الأخيرة ضد الشيشان.

- الشبكات العالميَّة للاتصالات والتجارة جعلت النخبة تعرف أفضل البضائع والتكنولوجيات. والوعي يخلق الطلب على السلع التي يفضلها المستهلكون في كل المجتمعات بعد أن يعرفوها (من أجهزة التلفزيون والهاتف الخليوي إلى سندويش ماكدونالدز والجينز الأزرق). تنشر هذه الطلبات «التقنيات» ـ الفيزيائية والإدارية ـ التي ثبتت جدارتها في إنتاج الرخاء، من محركات الانفجار الداخلي والأقراص المدمجة إلى الملكية الخاصة القائمة على السوق، والمكافآت الخاصة (على أساس النتائج أكثر من الحاجة) والقرارات الخاصة بالاستثمار والإنتاج.

النتائج متعددة: بما أن الأداء الاقتصادي والقاعدة التكنولوجية للمجتمع هي البنية التحتية للقدرة العسكريَّة، يتعين على الدّول التي تسعى إلى تطوير قدراتها العسكريَّة الكافية لتؤكد بقاءها واستقلالها أن تتماشى مع التدفق العالمي للتقنيات المتفوقة. لا يشمل هذا المعلومات الصلبة فقط، بل يشمل المعلومات الليِّنة أيضاً كالوصول إلى الإنترنت بالنسبة للناس القادرين على تطوير

المعلومات الليِّنة أَو المشاركة في أَسواق المال. انظر مثلاً إلىٰ خيارات الحكومة الروسية اليوم. هل هناك بديل حيوي عن السعي للانضمام إلىٰ الاقتصاد العالمي؟ لقد أجاب فلاديمير بوتين Vladimir Putin بكل وضوح: لا. لهذا الاقتراح مضامين كبيرة للديمقراطية (كما يناقش فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama)، وللقبول العالمي لأفكار ومُثل وحتى للهوية والمصالح تستحق تفكيراً متأنِّياً.

- الشبكات العالميَّة، سيما في الاقتصاد تخلق طلبات من اللاعبين الأقوياء بخصوص التنبؤ بالتفاعلات وبقواعد اللعبة التي تصبح بالنتيجة جزءاً من القانون الدّولي.

من النتائج: بدءاً من GAAP (القبول العام للممارسة المحاسبية) إلىٰ العقود التي تصبح نافذة المفعول بموجب قانون التجارة في ولاية نيويورك، إلىٰ منظَّمة التجارة العالميَّة، إن القانون الدّولي يتقدم بخطى حثيثة لا محالة.

- الوعي بالمدىٰ الذي تتكوَّن فيه شروط وأحوال المواطنين في دولة ما بعوامل خارجية (كالشركات متعددة الجنسيات وتجّار العملات) ينتج، وخاصة لدىٰ الشركاء الأضعف، طلباً لحكم دولي أكبر. فبعد اجتماعات سياتل وواشنطن دي سي تأكدت «العولمة». ينتج عن إجراءات العولمة قفزة إلىٰ الوراء طبعاً. وأسباب عدم الرضا واضحة وضوحاً كافياً: تفرض العولمة تغييرات جذرية في الدّول وتسلط الضوء علىٰ عجز الحكومات القومية عن ضبط أَمن مواطنيها وسعادتهم.

من بين النتائج: تصبح الدعوات إلىٰ مؤسَّسات عالميَّة تمثِّل مصالح الأطراف المتأثِّرة دعوات معقولة. حتى جورج سوروس George Soros، الذي يعتبره البعض يمثِّل العوامل الخاصة (التي لا علاقة للدولة بها) التي تشكِّل شروط وأحوال حياة الناس حول العالم، ادَّعىٰ أنَّه بنى مؤسَّسات عبر الأمم للحكم لتساعد في تنظيم أثر القوىٰ الاقتصاديَّة التي تتجه نحو العولمة.

- القضايا عبر الأمم، كتجارة المخدرات غير القانونية والإرهاب والمرض والتهريب والجريمة المنظمة تضع تهديداً متزايداً بينما تتكاثر الشبكات العالميَّة وتقوىٰ. في التقرير السنوي للأمم المتحدة في سنة 1999 يعرِّف وزير الدفاع الأخطار عبر الأمم كأحد التحديات الرئيسيَّة للأَمن في أمريكا. «إن تجارة المخدرات غير القانونية، والجريمة المنظَّمة بما فيها القرصنة وتجارة الأسلحة غير القانونية والمواد الاستراتيجيَّة سوف تستمر في التقليل من أهمية شرعية الحكومات الصديقة، وتهديد الأقاليم الرئيسيَّة وممرَّات البحار، وتهديد سلامة مواطني الولايات المتحدة في الوطن وخارجه. وأخيراً، إن الأمراض البيئية، وتدفق المهاجرين بدون ضوابط، وحالات الطوارئ الإنسانية الأُخرىٰ سوف تقوض أقاليم من العالم بين الحين والآخر». ويتابع التقرير «الإرهابيُّون الذين تتزايد قدرتهم وقسوتهم» ويحذِّر «سوف يستمرون بتهديد أرواح المواطنين الأمريكيين تهديداً مباشراً، وسوف تسعى مؤسَّساتهم للتقليل من أهمية سياسات الولايات المتحدة وحلفائها»[17].

إن معظم الشبكات يمكن استخدامها لأغراض قانونية وغير قانونية. وعولمة الشبكات تعني أن آثار الأنشطة الصريحة يمكن الشعور بها عالمياً. مثلاً، إن تطورات الاتصالات البعيدة، وتقنيات الشحن التي جعلت في التجارة العالميَّة ثورة، وهي التي، في الوقت نفسه، قلَّلت العوائق والتكاليف بالنسبة للإرهابيين ومنتجي المخدرات. إن اجتماع العولمة مع ثورة تقنيات المعلومات قد أعطت الأفراد والمجموعات قوة خارقة في جميع أنحاء الكرة الأرضية لمتابعة أهداف بنَّاءة وأهداف تخريبيَّة. إضافة إلىٰ أن المشكلات التي بطبيعتها عابرة للأمم، كفساد البيئة والمرض، تقفز فوق حدود السيادة طبعاً. نشرت شبكات الاتصالات والنقل العالميَّة تهديدات عبر الأمم تقفز وراء الجوار المباشر إلىٰ عقد بعيدة في الشبكة.

من بين النتائج: لا يمكن حل المشكلات عبر الأمم بما فيها المشكلات

الاقتصاديَّة والبيئية والإرهابية والثقافية، والإجرامية والتهديدات الأُخرىٰ للأَمن القومي، بوسائل قومية فقط. إنَّها تحتاج إلىٰ حلول تعتمد آليات إقليمية وعالميَّة من التعاون والتنسيق. وهكذا، إن خلق الزوابط بين النقاط في جميع أنحاء الكرة الأرضيَّة (والذي تسوقه التقنيات) بأبعاد تشمل المعلومات والاتصالات والتمويل والتجارة واستخدام القوة العسكريَّة، يخلق طلباً علىٰ الحكم فوق القومي. كيف يمكن أن يعالج القادة السياسيون المسؤولون عن مكونات أضيق هذه الطلبات، هو تحدي العولمة الدائم للحكم!

ملاحظات

(1) لجنة المصالح القومية الأمريكية، America's National Interests (Cambridge, Mass.: Belfer Center for science and International Affairs, 2000) ص 15.

(2) مركز العلوم والشؤون الدولية، «International Security» MIT Press, 1976.

(3) ديفيد هيلد وآخرون David Held، «Global Transformations: Politics, Economics, and Culture.» (Stanford University Press, 1999).

(4) هيلد وآخرون ص 104، «Global Transformations».

(5) نفس المصدر ص 138.

(6) نفس المصدر.

(7) نفس المصدر.

(8) نفس المصدر.

(9) نفس المصدر ص 102.

(10) توماس فريدمان Thomas Friedman «The Lexus and the Olive Tree» (Farrar, Straus, and Giroux, 1999).

(11) نفس المصدر ص 196.

(12) نفس المصدر ص 197.

(13) نفس المصدر ص 201.

(14) نفس المصدر ص 204.

(15) نفس المصدر ص 211.

(16) انظر كوفي عنان Kofi Annan، «Human Rights and Humanitarian Intervention In The Twenty First Century». in Samantha Power and Graham Allison eds. «Realizing Human Rights: Moving from Inspiration to Impact» (St-Martin's Press, forthcoming).

(17) وزارة الدفاع في الولايات المتحدة، تقرير وزير الدفاع إلىٰ الرئيس والكونغرس (1999).